

الفصل الخامس

المدرسة التاريخية في مصر

النشأة.

القصص والقصاصون.

المؤرخون الأول.

نماذج التأليف التاريخي.

obeikandi.com

الفصل الخامس

المدرسة التاريخية فى مصر

النشأة.

القصص والقصاصون.

المؤرخون الأول .

نماذج التأليف التاريخي.

obeikandi.com

كتابات لشهود عيان.

ومع نشأة المدرسة التاريخية المصرية وظهور كتابات ابن عبد الحكيم عن تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، يشهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عدداً من المؤرخين المسلمين الذين أدلوا بدلوهم في كتابة التاريخ وإن غلب علي كتاباتهم تدوين تاريخ الكنيسة، ومنهم سعيد بن البطريق ٨٧٦: ٩٦٠م، وهو كما وصفه المؤرخون كان عالماً في الطب والتاريخ وإن لم يخل تاريخه من بعض الأخطاء وساويرس بن المقفع أسقف الأسمونين وهناك ما يشير إلي أن ساويرس لم يكن يعرف اللغتين القبطية أو اليونانية وكان يلجأ إلي من يقوم له بترجمة بعض الوثائق التي استخدمها في كتابه، وهذا يؤكد اضمحلال هاتين اللغتين في تلك الفترة، وأن اللغة العربية كانت هي لغة العلم والكتابة والتأليف في تلك المرحلة (١).

القصص والقصاصون

بدأت الحركة العلمية في مصر تخطو خطوات حثيثة نحو النضوج والتطور منذ أن أسس مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، ومع هذه الحركة العلمية النشيطة ظهرت بدايات واضحة نحو وضع أسس علم التاريخ الذي بدأ في مصرشأنه شأن البلدان الأخرى بالقصص.

ويخبرنا المقرئزي نقلاً عن القضاعي: روي نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يقص في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن أبي بكر ولا عمر ولا عثمان رضي الله عنهم وإنما كان القصص في زمن معاوية.. (٢)

بينما يقول عمر بن شبة أن القصص أحدث في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه وأن أول القصاصين في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة كان ثميم الداري، الذي استأذن عمر رضي الله عنه أن يذكر الناس فأبي عليه حتى كانت آخر

(١) فارتن بنلر فتح العرب لمصر - ترجمة محمد فريد أبو حديد، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) المقرئزي. المخطوط ج ٢، ص ٢٥٣

ولايته فأذن له، وكان يذكر الناس يوم الجمعة، وفي عهد عثمان رضي الله عنه كان يذكر الناس يومين كل أسبوع. أما في مصر فكان أول من قص بها سليمان بن عتر التجيبي المصري فيقول المقرئزي (يقال إن أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبي في سنة ثمان وثلاثين سنة وجمع له القضاء إلي القصص ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص وكانت ولايته علي القضاء سبعا وثلاثين منها ستان قبل القضاء). (١)

ويختلف السيوطي مع المقرئزي حول هذا الموضوع فيقول: إن سليم بن عتر التجيبي المصري أبو سلمة قاضي مصر وقاضيها وناسكها من الطبقة الأولى من التابعين شهد خطبة الفاروق عمر رضي الله عنه بالجالية، وهو أول من قص بمصر عام ٣٩ هـ / ٦٥٩ م وولاه معاوية القضاء بها أربعين سنة فأقام بها عشرين سنة (٢) كما يخبرنا أيضا أن سليم بن عتر التجيبي كان أول من أسجل بمصر سجلا في الموارث وتوفي بدمياط عام ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ثم تولي القصص والقضاء في مصر من بعده وفي عام ٧٦ هـ / ٦٩٥ م عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني أو عبد الله المصري قاضي مصر روي عن ابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة، وكان عبد العزيز بن مروان والي مصر يرزقه في السنة ألف دينار فلا يدخرها. (٣) ويروي أن المأمون رزق أبي العلاء عشرة دنائير علي القصص. (٣)

وتولي القضاء أيضا أبو الخير مرثد بن عبد الله الحميري وكان قاضيا بالاسكندرية روي عن ثابت وابن عمر وأبي إمامة وعقبة بن عامر الجهني. قال ابن يونس: كان مفتي أهل مصر في زمانه، وكان عبد العزيز بن مروان يحضره فيجلسه للفتيا، وتوفي عام ٩٠ هـ / ٧٠٨ م (٤)

وتولي القضاء أيضا بمصر عقبة بن مسلم الهمداني وفي عام ١١٨ هـ /

(١) - المقرئزي: الخطط ج٢، ص ٢٥٣ : ٢٥٤

(٢) قارن السيوطي: حس المحاضرة: ج١، ص ٢٩٥

(٣) نفس المصدر: ج١، ص ٢٩٦

د(٤)السيوطي حس المحاضرة ج١، ص ٢٩٧

٧٣٦م تولي ثوبة بن عمار بن حرملة الحضرمي أبو محجن المصري قاضي مصر روي عن عفير عريف بن سويح، وقد جمع له القضاء والقصاص بمصر وتوفي عام ١٢هـ / ٧٣٧م واستمر هذا التقليد معمولاً به في مصر (١) روي الليث بن سعد أن القصاص بوعان. قصص العامة وقصاص الخاصة، أما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه نفر من الناس يعظهم ويذكرهم، أما قصص الخاصة فهو الذي أمر به معاوية وولي عليه من يقوم بأمره وكان يجلس بعد صلاة الصبح يقص علي الناس يعظهم ويذكرهم، وإلي جانب القصاص والقصاصون الذين كانوا يعملون بالمسجد الجامع في القسطنطينية كما كانت هناك زوايا يدرس فيها الفقه من أشهرها زاوية الإمام الشافعي الذي قام بالتدريس فيها. (٢)

ففي جامع عمرو بن العاص وكما تحدثنا المصادر كان صحابة رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد لدعوة الناس إلي الإسلام مما عرف بمجالس القصاص، يقرأون عليهم القرآن الكريم ويحدثون بأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان أول من جلس في تاج الجوامع ليقص القصاص علي المسلمين سليم بن عتر الصحابي وذلك في ولاية عمرو بن العاص، وذلك عملاً بما كان يتم في المسجد النبوي في المدينة

ويبدو أن القصاص أصبح من الوظائف التي وضعها المسلمون ليواجهوا بها مجالس الخوارج والشيعية الذين كانوا يجلسون في المساجد محاولين التأثير علي الناس، ومن هنا نجد أن معاوية بن أبي سفيان قد جمع لسليم بن عتر التجيبي القضاء إلي جانب القصاص إلي أن عزله عن القضاء، واختص منذ ذلك الوقت بالقصاص. (٣)

وانتشرت مجالس القصاص في مصر فكانت تعقد في مساجد القسطنطينية والاسكندرية ودمياط، وتحدثنا مصادر التاريخ المصري عن عدد من هؤلاء

(١) المفريزي الخطط ج ٢، ص ٢٥٤

(٢) نفسه

(٣) السيوطي حصر المحاضرة ج ١ ص ٢٩٥

القصاص الذين اشتهروا في مصر من بينهم عقبة بن مسلم التجيبي، وثوبة بن نمير الحضرمي وخير بن نعيم الحضرمي، ومنصور بن عمار، وأبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني والحسن بن الربيع بن سليمان وغيرهم.

كذلك حرص صحابة رسول الله ﷺ من حضروا إلي مصر وشهدوا الفتح علي رواية الأحاديث النبوية في مسجد عمرو بن العاص. (١) وعند الحديث عن نشأة المدرسة التاريخية الإسلامية في مصر، لابد وأن نؤكد علي حقيقتين هامتين الأولى: أن الفتح الإسلامي لمصر قد غير وجه التاريخ المصري، ذلك أن مصر قد عرفت بأن حضارتها تمصر كل داخل إليها، وظلت تحتفظ بأصول هذه الحضارة ومقوماتها فلم يتخل المصريون عنها علي مدي تاريخهم الطويل، أما الثانية: فقد صاحب الفتح الإسلامي لمصر اعتناق أهلها، للإسلام ورحبت مصر بالفاتحين، وتعلم المصريون لغة القرآن الكريم وأصبحت لغة الدولة والشعب علي السواء، وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ مصر أن يغير المصريون لغتهم، وأن يدخلوا في دين الله أفواجاً ليكونوا من أشد الكتاب دفاعاً عن هذا الدين، ولتشهد مصر بذلك تغيير اجذريا اضاف إلي ملامح حضارتها لتصهر معها وتظهر حضارة جديدة هي الحضارة الإسلامية في مصر الإسلامية.

ومع الفتح الإسلامي لمصر أسست الفسطاط، ومن جامعها تاج الجوامع انبعثت الأفكار التي حملها المسلمون معهم، والتقت مع التراث المصري الذي التحمت فيه المؤثرات القديمة المصرية واليونانية والرومانية واليهودية والمسيحية لتذوب كلها أمام الفكر الجديد الذي حمله المسلمون معهم إلي عاصمة مصر. وفي الفسطاط ظهرت بوادر الكتابة التاريخية علي أيدي رجال الفتح ومن بينهم بعض صحابة رسول الله ﷺ وبعض التابعين الذين أسهموا بشكل ملموس في نشأة هذه المدرسة ووضع الأسس التي قامت عليها.

(١) المقرئبي: الخطط - ج٢، ص ٢٥٥.

(٢) در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة، السيوطي. حن المحاضرة: ج١، ص ٩٩ وما بعدها

فقد حضر مع جيش الفتح الإسلامي لمصر الذي بلغ تعداده كما تشير المصادر التاريخية خمسة عشرة ألف مقاتل، عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ من قريش ومن غيرهم منهم الزبير بن العوام وعبد الله بن عمرو وخارجة بن حذافة العدوي وعبد الله بن سعد بن أبي السرح وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن العاص السهمي ونافع بن قيس الفهري والمقداد بن الأسود أبو عبد الرحمن بن يزيد أنيس الفهري وأبو رافع مولي رسول الله ﷺ وابن عبدة وعبد الرحمن وربيعه ابنا شرحبيل بن حسنة، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد الأنصاري وأبو الدرداء عويمر بن عامر، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وغيرهم (١).

وتجدر الإشارة إلى أن صحابة رسول الله ﷺ وسلم الذين دخلوا مصر مع الفتح الإسلامي بلغ عددهم مائة ونيفا وأربعين صحابياً، ويخبرنا السيوطي أن الإمام محمد بن الربيع الجيزي قد ألف كتاباً في مجلد واحد استوعب فيه أسماء صحابة رسول الله ﷺ وأكمل ما فات علي كل من ابن عبد الحكم في تاريخه وتاريخ ابن يونس وطبقات ابن سعد وتجرید الذهبي وقد بلغوا عنده ما يزيد علي ثلاثمائة صحابي. وهذا الكتاب قد لخصه السيوطي وأضاف عليه ورتبه حسب حروف المعجم وأسماء در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة (٢).

ومن أشهر الذين جلسوا للحديث في القسطنطينية عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر واختط فيها لنفسه داراً وهي التي دفن فيها بعد وفاته، وعرف عبد الله بن عمرو بن العاص بحفظه لاحاديث رسول الله ﷺ، خاصة وأنه دون من الاحاديث النبوية الشريفة ألف حديث اشتملتها صحيفته التي نقلها معه إلى مصر، ويخبرنا عبد الله بن عمرو يقول: (استأذنت النبي ﷺ في كتابة ما سمعت منه فأذن لي فكتبت) ويذكر ابن سعد بروايات إن عبد الله بن عمرو كان يسمي صحيفته تلك الصادقة (١).

(١) المفريزي. المخطوط: ج١، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) السيوطي حسن المحاضرة ج١٤، ص ٩٩.

وقد روي عن رأي هذه الصحيفة عنده وقد سأله عنها فقال هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلي الله عليه وسلم، ليس بيني وبينه فيها أحد (٢) حضر عبد الله بن عمرو بن العاص مع أبيه إلي مصر بعدما ندم علي اشتراكه فيصفين، وروي عنه أنه قال مالي وصفين، ومالي ولقتال المسلمين وبعدهما استقر فيها وذاع صيته جلس للتدريس في جامع عمرو بن العاص، وتخلق حوله التلاميذ واستمع له المشاهير من التابعين، ويمكن القول أن حلقة عبد الله بن عمرو كانت الأولى من نوعها في مسجد والده، وكان من بين الرجال الذين جلسوا إليه سويد قيس التجيبي وعبد الله بن الحنظلي، ويزيد بن رباح وأبي عبيد بن عقبة بن نافع.

وبعد عابس بن سعيد المرادي من أشهر تلاميذه ويذكر لنا الكندي في كتابه الولاية والقضاة أن شهرة عابس قد ذاعت، وعرف عنه عدله وورعه فولاه عبد العزيز بن مروان القضاء والشرطة في الفسطاط. (٣)

ومن أشهر الرواة الذين رروا بالمدينة المنورة والفسطاط أبو بصرة الغفاري الذي عنه نقل ابن عبد الحكم عدداً من الأحاديث وهو من أصحاب النبي ﷺ نزل بمصر ودفن بها، ولا يمكن أن تغفل في هذا المقام الإشارة إلي أبي أيوب الأنصاري الذي حدث بالفسطاط وعنه أخذ الحديث ويخبرنا ابن سعد أن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي الذي صحب رسول الله ﷺ نزل بمصر وروي عنه المصريون، كذلك كان من بين من نزل مصر وروي بها أحاديث رسول الله ﷺ مسلمة بن مخلد بن الصامت.

ومن بين الرواة عبد الله بن عقبة بن لهيعة الذي حدث بمصر أيضاً لكنه لم يصل إلي منزلة الليث بن سعد، فيروي عنه ابن سعد أنه كان ضعيفاً وعنده حديث

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٧، ص ٤٩٤: ٤٩٥

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٧، ص ٤٩٤

(٣) - الكندي: الولاية والقضاة ص ٣١١

كثير، وكان يقرأ عليه في مصر فلم يكن يصرح براهه ويسكت عما ليس من حديثه وفي حلقاته بالمسجد العتيق ظل يحدث ويدرس الحديث حتى وفاته عام ١٧٤هـ / ٧٩م في خلافة هارون الرشيد. (١)

وكانت الخطوة الإيجابية التي أسرعت بظهور المدرسة التاريخية في مصر، قيام المحدثين المسلمين بتدوين أحاديث رسول الله ﷺ حيث شجع عليه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وذلك لشدة حرصه على الحفاظ على الحديث. وابن لهيعة هو أبو عبد الرحمن بن لهيعة بن عقبة الغنافي، وقيل الحضرمي، وهو من مشاهير قضاة مصر (١٥٥ - ١٧٤هـ / ٧٧١ : ٨٧م) وهو من العلماء المصريين الذين ولدوا بالفسطاط وعاشوا بها، وكان شغوفاً بجمع الحديث فقد اشتهر بأنه من الكاتبتين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه وقد اشتهر بذلك حتى عرفه الناس بأبي خريطة حيث كان يعلق خريطة في عنقه. (٢)

وقد اختلف في صدق رواياته فقد ووصف بالضعف وسوء المذهب ورمي بالشيخ، لكن الذهبي في ترجمته له يورد روايات لرجال وصفوه بالصدق والعلم، فقد روي عن زيد بن الحباب الذي روي عن سفیان قال: «كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع». (٣)

أما الليث بن سعد فقد حدث بمصر، وقد عرف بين المحدثين بالثقة، وكان كثير الحديث صحيحه يروي ابن سعد: أنه استقل بالفتوي بمصر في زمانه، وكانت له مجالسه في جامع عمرو حيث بلغت أربعة، خصص منها مجلس للحديث. ولد الليث بن سعد بقرية قلقشندة عام ٩٤هـ / ٧١٢م وسمع علماء المصريين والحجازيين، وروي عن عطاء بن رباح وابن أبي مليكة وشهاب الزهري، وحدث

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ج٧ ص ٥١٦

(٢) سعد بن غلول عبد الحميد فتوح المغرب الأندلس رواية ابن عبد الحكم دراسات عن ابن عبد

الحكم ص ص ١٧١، ١٧٢

(٣) المقرئ المخطوط ج٢ ص ٢٥٥

عن هشيم بن بشير وعبد الله بن المبارك وعبد الوهاب بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم ويحيى بن بكير.

زار العراق وتعلم علي شيوخها، ورحل إلي الحجاز لاداء فريضة الحج وهناك التقى بابن شهاب الزهري، وعنه قال ابن بكير: ما رايت احداً أكمل من الليث بن سعد، كان فقيهاً عربي اللسان يحسن القرآن والنحو. (١)

وكان الليث بن سعد يعقد في كل يوم أربعة مجالس في الفسطاط، أما الاول فيجلس ليأتيه السلطان في نوابه وحوادثه، وكان الليث يغشاه السلطان فإن انكر من القاضي أو من السلطان أمراً كتب إلي أمير المؤمنين فيأتيه العزل، وكان يجلس لأصحاب الحديث، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده. وعنه قال ابن وهب: لولا مالك والليث بن سعد لضل الناس وذهب العلماء والمحدثين بما يحفظون من أحاديث رسول الله. (٢)

وعندما حل الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن أدريس بالفسطاط ازدهرت حركة تدوين الحديث والتحرير عن صحته وإسناده، فقد انتهز أهل الحديث في مصر وجود الشافعي بينهم فكانوا يتوافدون عليه في مسجد عمرو بن العاص حيث الشافعي رضي الله عنه يقضي الساعات الطوال من بعد صلاة الفجر حتي صلاة الظهر في المسجد محدثاً وفقهاً ونحوياً يفيد الناس بعلمه الذي أفاءه الله عليه.

جاء الإمام الشافعي إلي مصر بعد ترحاله الطويل طلباً للعلم فقد طوف ببلاد فارس وما حولها من بلاد الأعاجم وزار بغداد ورحل إلي بلاد ربيعة ومصر، ووصل إلي شمال العراق، وزار جنوب بلاد الروم ثم عاد إلي بلاد الشام حيث قضى وقتاً في حران، ومنها ذهب إلي فلسطين ثم اتجه إلي المدينة المنورة، حيث

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى - ج ٧، ص ١٧٥

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان - ج ٤، ص ص ١٢٩ - ١٣٢

التقي بالإمام مالك وذلك في عام ١٧٤هـ / ٧٩٠م. وفي المدينة وصلته الأخبار بوقاة الليث بن سعد في ١٧٥هـ / ٧٩١م فحزن عليه الشافعي حزنا شديداً، لكنه ظل بالمدينة المنورة في صحبة الإمام مالك يتعلم علي يديه وينهل من علمه وفضله حتي توفي الإمام مالك ودفن بالبقيع عام ١٧٩هـ / ٧٩٥م.

ومن تلامذه الليث بن سعد المشهورين الفقيه المحدث المؤرخ سعيد بن هفير ولد بمصر عام ١٤٦هـ / ٧٦٣م كما شب وتلقي علومه فيها ثم رحل إلي المدينة المنورة وهناك تعم علي يدي الإمام مالك، وزار بغداد وعاد الي مصر حيث التقى بابن عبد الحكم، ومما يؤحكد ذلك أن سعيد بن هفير كان من الرواة الذين ذكرهم ابن عبد الحكم في تاريخه.

وكان العلماء يتلقون عنه العلم في المسجد وعلي باب داره وكان من أهم تلامذته الربيع الجيزي، واسماعيل المزني، وحرملة التيجيبي ومحمد بن عبد الله بن الحكم ، وكان من بين تلامذته نساء كثيرات منهم السيدة أخت المزني الذي أخذ عنها العلماء وأدرج أسمها في جدول كبار فقهاء الشافعية.

وفي عام ١٨٢هـ / ٧٩٨م دخل الشافعي مصر وبدأ فيها حياته العلمية وأخذ يلقي دروسه في جامع عمرو. (١)

وظل الشافعي رضي الله يثري الحركة العلمية بفسطاط مصر في الحديث والفتنة والفتيا والعلوم واللغة والكلام، والتدريس والتأليف والتصنيف حتي توفاه الله في رجب عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م.

وفي الفسطاط التقى بالإمام الشافعي ابن هشام صاحب سيرة رسول الله ﷺ وهذا يؤكد لنا أن الحركة العلمية في مصر في ذلك الوقت كانت تتركز حول أقطاب كبار كان لهم باع كبير في تعميق جذورها، ومن هذا نخلص إلي أن هذه المقدمات كلها قد نتج عنها قيام المدرسة التاريخية المصرية التي انسلخت ولا شك من ذلك الصرح العظيم الذي شيده هؤلاء الرجال بما أسسوه من علوم الإسلام

(١) الشافعي. الام. ج١. ص ١١٠.

وكان جامع أحمد بن طولون مركزاً للعلم والتدريس ففيه أملي الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، وذلك في حضور أحمد بن طولون الذي دفع له كياً من النقود فيه ألف دينار ويبدو أن أحمد بن طولون كان يحضر هذا الاملاء واستمر التدريس في الجامع الطولوني حتي العصر المملوكي فيخبرنا السيوطي أن الأمير علم الدين سنجر رتب دروس التفسير والحديث والفقہ علي المذاهب الأربعة هذا بالإضافة إلي القراءات والطب والميقات . (١)

كما أوقف علي الجامع أوقافاً وتولي نظر المسجد في عصر السلطان لاجين قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وفي أيام الناصر تولى نظره أمير مجلس . (٢)

ولدت إذن المدرسة التاريخية المصرية مع منتصف القرن الثاني الهجري لتصبح في القرن الثالث الهجري واضحة المعالم، ظاهرة الأهداف، تخدم علماً جديداً يقوم علي تأصيله وتعميق جذوره المؤرخون المحدثون أولاً ثم المؤرخون الذين تربوا في مدرسه الحديث وتعلموا فيها، لكنهم استطاعوا أن يجعلوا التاريخ تخصصاً وعلماً له سماته الخاصة وأهدافه الواضحة وأسلوبه المتميز، ومنهجه المستقل، ومجالاته المتعددة فكتبوا السير والمغازي والفتوح، والفوا في الرجال والطبقات ثم انتقلوا من ذلك إلي التاريخ الموسوعي العام، والتاريخ المحلي الخاص كما كتبوا في الرحلات والمسالك والممالك والبلدان، وصنفوا في التراجم والوفيات وتخصصوا في النظم الإسلامية فظهر أولئك الرجال الذين كتبوا في الخراج والأموال، وقوانين الدواوين، والفرق الإسلامية، والعملة والصكّة والخطط والمدن، والتراجم الخاصة بالملوك والخلفاء والأمراء والسلاطين وذلك علي مراحل متتالية شهد فيها علم التاريخ تطورات جوهرية ظهرت في المؤلفات التي اختصت به كعلم قائم بذاته ولعل من أشهر تلك المؤلفات ما دونه المؤرخ المصري الشمس السخاوي .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة . ج ٢ ص ١٨٣

(٢) انظر السيوطي : حسن المحاضرة . ج ٢ . ص ص ١٨٢-١٨٣

المؤرخون الأول:

ومع النشاط العلمي والفكري الذي شهدته الفسطاط بدأت التدوين التاريخي الذي يعود إلى منتصف القرن الأول الهجري فقد ظهر من الرجال من دون تاريخ الفتح الإسلامي لمصر ومن هؤلاء الرواة محمد بن أوس الداري، وكان يقص القصص ويروي التاريخ في مسجد عمرو لكنه توفي ٤٠هـ / ٦٦١م، ومن بعده جاء تبع بن عامر الحميري الذي أسلم بعد الفتح وعمل بالفسطاط في تدوين الصحائف والأخبار وعنه أخذ أهل مصر وتوفي عام ١٠١هـ / ٧١٩م. وتبع هؤلاء عروة بن الزبير الذي جلس في مسجد عمرو راوياً للمغازي والسير.

وبنهاية القرن الأول الهجري ظهرت التأليف والمذونات في أخبار الفتح الإسلامي لمصر وكان ذلك علي يدي أبي قبيل بن هانيء المعافري الذي يعد من أقدم الرواة في مصر وتوفي عام ١٢٨هـ / ٧٤٥م، وكان ليزيد بن حبيب اهتمام ملحوظ بالرواية التاريخية، وما ترك من أعمال كانت مصادر أولية لكل من ابن عبد الحكم والكندي في مؤلفاتهما

وعن تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد عبد الله بن وهب الذي يمكن أن نعه من أهم الرجال الذين عنوا بالتاريخ وتدوينه والتأليف فيه، وقد ذكر لنا المقرئزي أنه صنف كتاباً في التاريخ أسماه تاريخ مصر.

وقد ذكر المقرئزي حسين بن شفى في حديثه عما إذا كانت مصر قد فتحت صلحاً أم أنها فتحت عنوة مما يدل على أن كتابة التاريخ قد بدأت في مصر منذ القرن الأول.

ويمكن القول أن الإهتمام بالتدوين التاريخي قد سار جنباً إلى جنب مع الفروع الأخرى للعلوم الإسلامية التي لاقت اهتماماً كبيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين المسلمين.

وكان لذلك التجمع الكبير للعلماء المحدثين والفقهاء والنسابة والإخباريين

واللغويين الاثر الاكبر في الاهتمام بالرواية التاريخية التي شهدتها الفسطاط سواء في مسجدھا الجامع أو في مجالس العلماء في الاسكندرية التي عاشت هي الاخرى نهضة علمية ملموسة قامت علي ايدي فقهاء المالكية بها.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المقدمات قد أدت إلي مولد المدرسة التاريخية المصرية في كنف المدرسة الفقهية بها، ومولد علم التاريخ كعلم له أصوله وقواعده المستمدة من الأصول والقواعد والاسس التي وضعها المحدثون المسلمون لعلم الحديث، وبصفة خاصة الاسناد في الرواية التاريخية التي لارمت المؤرخين في كتاباتهم لمدة طويلة واتضحت بشكل كبير في كتابات الطبري.

وكان لعبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن عبد الحكم دور مشهور في هذا المجال وكانت تحت يديه المصادر الأولية التي كتبها سابقوه فنري المقرئزي في خطه يروي عن ابن عبد الحكم الذي يروي بدوره عن الليث بن سعد، وعن يزيد بن حبيب كما يروي عن ابن لهيعة. ومع القرن الثالث الهجري تبدأ المدرسة التاريخية المصرية مسيرتها الحقيقية التي جاءت علي يدي المحدث المؤرخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم ١٨٧: ٢٥٧هـ / ٨٠٣: ٨٧١م.

لقد كان لليثة التي نشأ فيها عبد الرحمن بن عبد الحكم أثرها في اهتمامه بالتاريخ بل وقيامه بالخطوة الإيجابية الأولى في تدوين تاريخ مصر، ولقد أسس يكتانه فتوح مصر وأخبارها مدرسة مصر للتاريخ التي أكملها المؤرخون المصريون من بعده، وأصبح كتابه أقدم كتاب في تاريخ مصر الإسلامية. (١)

كما أصبح كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكيم المصدر الأساسي لكل من كتب من بعده من اللاحقين عن تاريخ مصر، فقد اعتمد عليه الكندي في الولاة والقضاة والحسين بن زولاقي صاحب كتاب تاريخ مصر، وعز الدين المسيحي المؤرخ مؤلف كتاب تاريخ مصر والقضاة المؤرخ والمقرئزي وغيرهم.

(١) سيدة كاشف . للنهج التاريخي لابن عبد الحكم ص ٣٠

وكان لابن عبد الحكيم منهج سار عليه في تدوين التاريخ فعنه يقول ابن خلكان :
(إنه عالم بالأحاديث والتواريخ وألف كتاباً في الفتوح وغيرها) (١) وابن عبدالحكم
هو المحدث المؤرخ الذي طبق أصول تدوين الحديث في كتابة التاريخ وكان عبد
الرحمن بن عبد الحكم محدثاً وقيهاً تفقه في علم الحديث استطاع أن يوظف
علمه ومهارته في الحديث لخدمة التاريخ واستطاع عبد الرحمن أن يستخدم الرواية
الشفوية في تدوين تاريخ مصر، فقد روي عن والده، وعن الليث ابن سعد، وعبد
الله بن صالح، وابن لهيعة ويزيد بن حبيب وغيرهم من محدثي القرن الثاني
الهجري.

كذلك اعتمد الرواية المدونة وهذه قليلة وإن كانت مشبهة وموجودة في كتابه
فقد اعتمد علي بعض الرسائل المتبادلة بين خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه وبين والي مصر عمرو بن العاص بشأن أمور إدارية في مصر وخاصة ما
يتعلق بالخراج، هذا بالإضافة إلي ماكتبه سعيد بن عفير المصري ١٥٤ : ٢٢٣هـ/
٧٦٢ : ٨٤١م، وابن بكير المخزومي ١٥٤ : ٢٢٣هـ / ٧٧٠ : ٨٤٥م .

تخصص ابن عبد الحكم في كتابه تاريخ خاص لمصر وهو بذلك يستند
نموذجاً جديداً من نماذج التأليف التاريخي وهو التاريخ المحلي، وإن كان هناك ما
يفيد من المصادر الإسلامية أنه كتب في هذا الصنف من التاريخ وفي غيره مما كان
سائداً في ذلك الوقت وهو التاريخ العام.

نماذج التأليف التاريخي:

ينسب إلي ابن عبد الحكم أنه أول من أدخل في منهج التدوين التاريخي
العناية بالخطط، وعلي هذا النحو سار مؤرخو مصر الإسلامية الذين ركزوا
أعمالهم علي الخطط ومنهم الحسن بن زولاق والمسبحي والقضاعي والمقرئزي
وغيرهم (٢)

ويعرف كتاب ابن عبد الحكم بكتاب فتوح مصر وأخبارها، وأيضاً فتوح
مصر وأفريقية والأندلس كما ورد في بعض المخطوطات وقد طبع الكتاب لأول مرة

(١) - ابن خلكان وفيات الأعيان - ج ٢ - ص ٢٤٠

(٢) - د عبد الرحمن زكي خطط القضاة في مصر ص ٤٩ - ٥٠

في ليون عام ١٩٢٠ بعناية الأستاذ تشارلز توري الذي تحدث في مقدمته عن الكتاب عن حياة أسرة ابن عبد الحكم ومكانة أبيه في مصر كشيخ للمالكية، ودور إخوانه، وما آلت إليه ظروفهم والمحنة التي تعرضوا لها علي أيدي الخليفة العباسي الذي أرسل من يقوم بالتفتيش علي بنسي عبد الحكم الذين كانوا قد تولوا علي الاستيفاء، لكن رسل الخليفة لم يجدوا شيئاً بل وجدوا الخزانة خاوية ومن ثم أوقعوا بهم أشد أنواع العذاب، ومات إخوان ابن عبد الحكم من اثر ذلك التعذيب، ولما ثبتت براءة أسرة ابن عبد الحكم علي أيدي القضاء أطلق سراح الأخوين الآخرين لكن سمعة أسرة ابن عبد الحكم كانت قد خدشت وتأثرت بشكل كبير. (١)

ويقول محقق الكتاب إنه يبدو أن ابن عبد الحكم كان قد أملي كتابه علي بعض تلاميذه الذين كانوا يجتمعون معه لسماع ما يمليه، ويبدو أيضاً أن أجزاء كبيرة مما كان يمليه ابن عبد الحكم كان يدون في نفس الوقت عما توكده المخطوطات الموجودة في لندن وباريس وليون. (٢)

وقد استطاع ابن عبد الحكم أن يواصل الكتابة بالرواية المسندة مشيراً إلي بعض مصادرة مثل ابن بكير وابن لهيعة. (٣)

وعلي الرغم من أهمية كتاب ابن عبد الحكم فإننا لا نسمع عنه لفترة طويلة من الزمن حتي ظهر في كتابات الكندي، فهو أول من أفاد من كتاب ابن عبد الحكم بل وكتابات أسرته أيضاً. لكننا لا نستطيع أن نغفل الدور الذي قام به ابن قديد الأردني الذي روي عن ابن عبد الحكم، والذي يبدو أنه استطاع الحصول علي نسخة من المؤلف الذي تركه ابن عبد الحكم وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري، وبهذا الطريق وصل إلينا كتاب ابن عبد الحكم الذي تناقلته تلامذة ابن

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر واخبارها- المقدمة ص ٣

(٣) ابن الحكم: فتوح مصر واخبارها المقدمة. ص ٢

(٤) انظر الكندي: الولاة والقضاة.

قديد وهم أبو بكر بن الفرج القماح، وأبو الحسن علي بن منير بن أحمد الخلال، ثم أبو صادق مرشد بن يحيى المدني ثم جاء آخر الرواة الذين نقلوا كتاب ابن عبد الحكم وهو الطاهر السلفي الأصفهاني المتوفي عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م الذي يقول في أخير الشيخ الفقيه الإمام المحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني قراءة عليه وأنا أسمع بشفر الاسكندرية حماء الله قال: أخبرنا الشيخ أبو صادق مرشد بن يحيى بن القاسم علي المدني بقراءتي عليه قال: أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن منير الخلال في كتابه سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج القماح أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم. (١) وهذا يوضح لنا كيف عاش الكتاب وكيف كانت رحلة مؤلف ابن عبد الحكم حتي وصل إلينا، ومن حسن الحظ أنه لم يفقد خلال تلك الرحلة، فقد استطاع رجاله الحديث الثقة أن يحفظوا هذا العمل، وهذا يجعل المؤرخ يثق في صحة الكتاب الذي تلقاه الطاهر السلفي من شيوخه عن ابن قديد الذي لم يلتق به ولم يدرس عليه فقد كان طفلاً عندما توفي عبد الرحمن بن عبد الحكم في عام ٢٥٧هـ / ٨٧٠م هذا من جهة ومن جهة أخرى فيمكن القول أن نسخة أخرى من كتاب ابن عبد الحكم قد وصلت مباشرة عن ابن قديد إلي الكندي الذي أشار إليها في كتاب الولاية والقضاة. (٢)

يقول ابن عبد الحكم: حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم حدثني رشدين بن سعد وحدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا عبد الله بن وهب عن حرملة بن عمران التجيبي عن عبد الرحمن بن شماسه المهري قال: سمعت أبا ذر يقول: قال رسول الله ﷺ: إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحم.

وهذا يجعلنا نعتقد أن مؤرخنا عبد الرحمن بن عبد الحكم اعتمد علي ما

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص ٣

(٢) نظر الكندي الولاية والقضاة ص ٤٦٥

ترك أبوه عبد الله من روايات ربما تكون قد دونت واستفاد منها عبد الرحمن بن عبد الحكم عند كتابته لتاريخه فتروح مصر وأخبارها.

وعلي هذا فإنا نعتبر عبد الرحمن بن عبد الحكم هو المؤسس الأول للكتابة التاريخية في مصر، وكتابه هو المصدر الأول الذي استقي منه المؤرخون المصريون الذين جاءوا من بعده مادتهم عن تاريخ مصر. فله إذن الفضل في تأسيس المدرسة التاريخية المصرية وفي وضع اللبنة الأولى في صرح التدوين التاريخي في مصر. ومع القرن الثالث الهجري بدأت المدرسة التاريخية المصرية تشهد خطوات حثيثة نحو التقدم الملموس في الكتابة التاريخية فقد ظهر الكندي تلميذ ابن قديد، والذي قدم لنا كتابه الولاية والقضاة، وهو الحلقة التالية مباشرة لما قدمه عبد الرحمن بن عبد الحكم للمدرسة المصرية.

والكندي هو أبو عمر التجيبي الكندي ولد في فسطاط مصر عام ٢٨١هـ / ٨٩٧م وكان من العلماء والمحدثين المشهود لهم بالمكانة الخاصة، وكان من أعلم الناس بأحوال مصر وأهلها، وقد درس الحديث والسنة والفقہ علي أئمة فحول، منهم أبي عبد الرحمن النسائي، ومن ثم فقد أعد الكندي ليستكمل الكتابة التاريخية في المجال الإداري ذلك أنه تناول تاريخ الولاية في مصر وتاريخ القضاة فيها وهو لا يقتصر علي ذلك بل يتناول من ولى الصلاة ومن ولى الحرب والشرطة ومن جمع له الحرب والصلاة كما يذكر في مقدمة كتابه

والكندي في واقع الأمر قد ألف كتابين الأول تسمية ولاية مصر وفيه ينتهي حتي بداية عصر الأخشيديين أما الثاني فهو تسمية قضاة مصر وفيه تناول قضاة مصر منذ أن فتحها المسلمون حتي منتصف القرن الثالث الهجري. لقد استطاع الكندي أن يطور ويضيف إلي التصنيف التاريخي، وأن يستخدم ما قدمه عبد الرحمن بن عبد الحكم بشكل جعله يستخرج نموذجاً جديداً من التأليف التاريخي وخاصة الخطط، وعنه يقول تقي الدين المقرئ في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها في ديوان جمعه أبو

عمر محمد بن يوسف الكندي. (١) كذلك يخبرنا السيوطي أن للكندي كتاباً اسمه الخندق وذلك في ترجمة لأحد الصحابة الذي شهدوا فتح مصر. (٢) ويمكن القول أن الكندي قد أفاد عن قبله وخاصة ابن عبد الحكم مؤسس هذا العلم الجديد أو هذا النوع الجديد من التصنيف.

وبهذا يكون القرن الثالث الهجري قد مهد الطريق لما شهده القرن الرابع من تطور في فن كتابة التاريخ وتحقيق استقلالية كعلم من العلوم الإسلامية الذي اضطلعت مصر فيه بعبء كبير لبنائه ووضع أسسه وتطوير مناهجه وتوسيع مجالاته حتى إذا أشرف القرن الرابع الهجري علي الانتصاف طالعنا مؤرخ مصري أمسك بزمام الموضوع ليهم يمثل إضافة حقيقية لعلم التاريخ.

لقد ظهر ابن زولاق في مصر بعد استناذه الكندي في العصر الي شهد نهاية حكم الطولونيين وبداية حكم الأخشيديين كما عاين تحول مصر إلي سلطنة الفاطميين، ولقد تأثر ابن زولاق بهذه التغيرات التاريخية الخطيرة في تاريخ مصر. وقد وصفه ابن خلكان بأنه كان فاضلاً في التاريخ، وله فيه مصنف جيد وله أيضاً كتاب في خطط مصر استقصى فيه.

وكتب ابن زولاق في أخبار الفضة وهو كتاب الذي قيل به علي كتاب ابن عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي الذي ألفه في أخبار قضاة مصر وانتهي فيه إلي عام ٢٤٦هـ / ٨٦٠م، فأكمله ابن زولاق، وانتهي فيه إلي عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م ومن مؤلفات الحسن بن زولاق الهامة أيضاً سيرة الإخشيد التي احتفظ ابن سعيد بقطعة وافرة منها في كتابه المغرب، وله أيضاً سيرة أحمد ابن طولون، وسيرة خمارويه.

(١) القريري . الخطط . ج ١ . ص ٤

(٢) السيوطي : حسن للحاضرة . ج ١ . ص ٢٠٢

وقد ضاعت معظم مؤلفات ابن زولاق إلا ما حفظ منها خلال استخدام المؤرخين المسلمين لها ولقد عاشت كتب ابن زولاق حتى القرن التاسع الهجري حيث نجد أن السيوطي وابن حجر العسقلاني والسيوطي وابن تغري بردي والمقريزي يشيرون إلي ماكتب إشارات متفرقة عن كتب مختلفة. ونستطيع القول بأن الحسن بن زولاق قد وضع الأسس لأنماط جديدة من التاريخ بحسب المدرسة المصرية فقد كتب في التاريخ الإداري وكتب في تراجم الحكام والخلفاء، أي أننا أمام مؤرخ للدولة كتب تاريخاً إدارياً ثم أفاض في الخطط وهو بذلك يضيف إلي من سبقه في هذا المضمار إضافات أكثر دقة وأكثر تنسيقاً. (١)

كما كتب ابن زولاق أيضاً تاريخاً للمعز لدين الله الفاطمي، فهو قد شهد دخول الفاطميين إلي مصر، وانتهاء حكم بني الأحميد الذين عرفهم وخدم في دولتهم وألف لهم.

لقد اتصل ابن زولاق بالفاطميين أيضاً، وكان من شهود العيان لعصر المعز وعصر ابنه العزيز، واتصل بالقائد جوهر الصقلي، وعلي الرغم من أن ما كتبه ابن زولاق عن سيرة المعز لدين الله الفاطمي لم يصل إلينا بشكله الأصلي إلا إننا فلمسه بوضوح في كتابات المقريزي وخاصة في كتاب اتعاظ الخلفاء بذكر الأئمة الخلفاء.

ويتضح من استخدام المقريزي لما ألفه ابن زولاق عن الفاطميين أنه تطرق إلي النظم التي أدخلها الفاطميون إلي مصر، والأحوال العامة عند الفاطميين، وطرائق الحكم والإدارة والاحتفالات الرسمية والدينية، وأساليب الانفاق ومظاهر البذخ، ومواكب الشيعة وطرقهم في استقبال الأعياد إلي غير ذلك من الظواهر والأحداث التي شهدتها ابن زولاق ودونها في كتابه ثم نقلها عنه المقريزي بشكل تفصيلي دقيق.

(١) انظر : ترجمة ابن زولاق في .وفيات الأعيان حـ ٢٠٠ ص ٩١ : ٩٢

وتمضي المدرسة التاريخية المصرية في تطورها لتواكب زميلاتها المدارس
الاسلامية الأخرى في بغداد ودمشق وكذلك في أقاليم الدولة الاسلامية فنحن
نعلم أن القرن الرابع الهجري شهد ميلاد المؤرخين العظام الذين أثروا المدارس
التاريخية الاسلامية بوجه عام، ومن بينهم المؤرخين المصريين الذين ما غاب عنهم
ما كان يجري من تطورات هائلة علي الصعيد العلمي والفكري للمسلمين ومن
ثم كان لهم الدور الكبير الذي أسهموا به تدوين تاريخ مصر.